الفصل الخامس

شؤون المرأة الحياتية الخاصّة منها والعامّة

البحث الأول:

عمل المرأة المشروع في ضوء القرآن والسّنّة

إنّ الإسلام منحَ المرأةَ كافّةَ حقوقها الفطرية والاكتسابية التي تَتَوافقُ مع قُدراتها الجسدية والنّفسية، وكرَّمَها وأعظمَ من شأنها، ورفع من مقام أنوثتها بالمعنى الصّحيح، فالذكورة والأنوثة جزءان متساويان في حمل أعباء الأمانة الإنسانية التي لا تتكاملُ معطياتُها إلّا بهما، فكلاهما مُتمّمٌ للآخر ومكمّلٌ له، لا يجوز أن يطغَى جانبٌ على جانبٍ آخر، فلكلٍّ دائرته ومجاله واختصاصه، لا استعلاء ولا استكبار للذّكورة، ولا ذُلَّ وامْتهَانَ للأنوثة، بل لها العزّةُ والكرامة والتقدير، فالرّجلُ يقومُ بواجباته ووظائفه التي خلقه الله تعالى من أجلها؛ من العمل والسّعي في طلب الرّزق والقيام بالقِوَامة والحماية لأسرته، وكذلك المرأةُ تقوم بواجباتها ووظائفها التي خلقها الله تعالى من أجلها، من الرّعاية والعناية الأُسَرِيَّة في كونها «زوجةً صالحةً» و«أُمّاً رؤُوفةً» و«أُخْتاً حَانيةً» و«ابْنةً رحيمةً».

لذلك كان الإسلامُ دقيقاً في نظرته إلى المرأة، ومُصيباً في تكريمه لها، وحكيماً في حِفَاظِه عليها، وكان معها ولها في جميع أدوار حياتها ومراحل معيشتها، ويتمثّلُ ذلك جلياً حينَ لم يُكلِّفْها أعباءَ كَسْبِ الرّزق، وأتعابَ مَهَامّهِ، وجعل ذلك محصوراً في الرّجل وأبنائه الذّكور، لهذا كان موقفُ الإسلامِ نحوَ تحمّل المرأة أعباء العمل حازماً حيث لم يسمح به إلّا في ظروفٍ خاصّةٍ، وأحوالٍ معيَّنةٍ، ومجالاتٍ مُحدَّدةٍ تَتَماشَى مع ضرورتِها وحاجتِها وإمكانيّتِها

واستطاعتها وتفرُّغِها، فوقَ واجباتِها المنزليّة ومهامِّها الأُسَرِيَّة، فلكي لا يُثقلَ عليها في حمل أعباءِ الحياة، أمرَها بالقرار في بُيُوتهنّ والحفاظ على كرامتهنّ، فقال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[١].

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: أي الْزَمْنَ بُيُوتكنّ فلا تَخْرُجْنَ لغيرِ حاجةٍ. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[٢] كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرّجال [بلا حجاب] فذلك تبرّج الجاهليّة. وقال مقاتل بن حيّان: التّبرّج أنّها تلقي الخمار على رأسها ولا تشدّه، فلا يواري قلائدها وقرطها وعنقها ويبدو ذلك كلّه منها، وذلك التّبرّج[٣].

ويقول الإمامُ القرطبي في تفسير لهذه الآية: معنى الآية الأمرُ بلزوم البيت، وإنْ كان الخطابُ لنساء النّبيّ ﷺ فقد دخل غيرهنّ فيه بالمعنى. وهذا لم يردْ دليلٌ يخصّ جميع النّساء، كيف والشّريعةُ طافحةٌ بلزوم النّساء بيوتهنّ، والانكفاف عن الخروج منها إلّا لضرورةٍ[٤].

وكما هو معروف فإنّ البيُوتَ للأزواج والزّوجات والأولاد، ولاختصاص المرأة برعاية البيت أولاً وأخيراً أضافه الله تعالى إليها لكثرة ملازمتها له والإقامة فيه، ولِما تُؤدّي فيه من وظيفةٍ عظيمة ألاَ وهي «الأمومة»!.

وقد ورد في ظلال القرآن في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[٥]: من وقَرَ، يَقر: أي ثَقُلَ واستقرَّ. وليس معنى هذا الأمر ملازمة البيوت فلا يَبْرَحْنَها إطلاقاً؛ إنّما هي إيماءة لطيفة إلى أن يكون البيتُ هو الأصلَ في حياتهِنَّ، وهو المقرّ، وما عداه استثناءٌ طارئٌ، لا يثقلن فيه ولا يستقررْنَ، إنّما هي الحاجة تقضى، وبقدرها. والبيتُ هو مثابةُ المرآةِ التي تجد فيها المرأة نفسَها على

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٣) تفسير ابن كثير، ج ٣/ ٤٨٢.
(٤) الجامع لأحكام القرآن - تفسير القرطبي، ج ١٤/ ١٧٩.
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

حقيقتها كما أرادها الله تعالى غير مشوهةٍ وَلا منحرفةٍ ولا ملوثةٍ، ولا مكدُودةٍ في غير وظيفتها التي هيأهَا الله تعالى لها بالفطرة.

ولكي يُهيّىءُ الإسلامُ للبيت جوَّهُ الهانىء، وللأطفال العنايةَ والرّعايةَ، أوجب على الزّوج النّفقة، وجعلها عليه فريضةً كي يُتاح للأم من الجهد والوقت، ومن الرّاحة وهدوء البال ما يجعلها دائبةَ العناية والرّعاية لحياة الأسرة، فالأمُّ المكدودةُ بالعمل للكسب، المرهَقَةُ بمقتضيات العمل، والمقيّدةُ بمواعيده، والمشتّتةُ الطّاقةِ فيه، لا يُمكنُها أنْ تقومَ بواجبات الأمومة والبيت والأسرة خير قيام، فهي إن قامت ببعض ذلك كان عبئاً عليها وعلى ما تتحمّله من أعباء العمل، ولذلك كانت هذه المرأة دائمة الإرهاق والكَلاَل والمَلاَل.

من أجل ذلك كلّه نلاحظ أنّ المرأة في ظل الإسلام مكفيةُ المؤونة في جميع أطوار حياتها [بنتاً كانت أو أمًّا أو أختاً أو زوجةً]! فالرّجلُ الأبُ أو الزّوجُ أو الابْنُ أو الأخُ؛ مسؤولٌ عن الإنفاق عليها وقضاء حوائجها خارج البيت، وإن شاركت في بعض ذلك فيلزمُ أن يكونَ في دائرة فراغها واستطاعتها، مع أنّ بعض الصّحابيات كنّ يقمن بمشاركة أزواجهنْ بعضَ أعمالهم، والرسولُ ﷺ لم ينكرْ عليهنّ ذلك، طالما كان في حدود الاستطاعة والإمكان. قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[1].

فلقد خلق الله تعالى النّاسَ ذكراً وأنثى، وجعلهم زوجين على أساس القاعدة الكليّة التي قدّرها سبحانه في عِمَارة هذا الكون، وجعل من وظائف المرأة أن تتزوّجَ فتحملَ وتضعَ وتُرضعَ، وتكفل ثمرة هذه الحياة الزّوجية، وهذه وظائفُ ضخمةٌ أوّلاً، وخطيرةٌ ثانياً! وهي ليستْ هَيِّنَةً ولا يسيرَةً، بحيث تُؤدّى بدون إعدادٍ عضوي ونفسي وعقلي؛ فكان عدلاً كذلك أن ينوط بالشّطر الثاني «الرّجل» أباً كان أم ابناً أو أخاً أم زوجاً، لتوفير الحاجات الضّرورية للبيت، وتوفير الحماية لكرامة الأنثى، كي تقومَ بوظيفتها الخطيرة!.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

فقيامُ الرّجل بهذه المهامّ إثباتٌ لرجولته وقِوَامته لأسرته، وبدونها لا قيمةَ له لا في نفس الزّوجة ولا البنت ولا الأخت ولا الأمّ، بلْ ولا قيمةَ له في المجتمع.

يقول رسول الله ﷺ: «**ألاَ وحقُّهُنَّ عليكم أن تُحْسِنُوا إليهنّ في كسوتِهِنّ وطعامِهِنّ**»(١).

والله تبارك وتعالى يقولُ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾(٢).

وبهذا حفظ الشّرعُ الحنيفُ حقوقَ المرأة، وجنّدَ الرّجل - أباً أو ابناً أو أخاً أو زوجاً - لخدمتِها والنّفقةِ عليها والحفاظِ عليها، والنّظر فيما تحتاجُهُ دون أن يأمرَها بالعملِ والكسبِ والكدحِ، ما لم تَطّوّع في ذلك ضمن استطاعتها وإمكانتها وأنوثتها.

وممّا تقدّم نرى الفَرْقَ العظيم بينَ حقوق المرأة وتكريمها في الإسلام، وبينَ ما تُلزمُهَا به الحضارةُ الغربية من كُلْفةِ العملِ والمهنةِ في المجالاتِ العامّةِ، بلا رأفةٍ ولا شفقةٍ ولا رحمةٍ لها، فكان واضحاً أنْ ليس في الوجود من قانونٍ يحمي المرأةَ، ويُحافظُ على كيانِها، ويضمنُ لها سعادتَها وأمْنَها وكرامتها، كما هو الحال في الإسلام وشريعتهِ السّمحةِ المطهّرةِ.

البحث الثاني:

الوظائف الحياتيّة للمرأة المسلمة في ظلال القرآن والسّنّة

أولاً - الوظيفة الأولى الزوجيّة:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾(٣) الآية.

(١) تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي ج ٤/ ٣٢٦، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ٦. (٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٩.

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾[١]، الآية.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[٢] الآية.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية السابقة: «لو أنّه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكوراً وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم إما من جانٍّ أو حيوانٍ، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة ورحمة، وهي الرأفة فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها أو رحمة بها بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك»[٣].

إن حياة المرأة أو الرّجل منفردين تعتبر ناقصة لا تكتمل إلّا باجتماعهما وتزاوجهما، هنا يجب إدراك حكمة الخالق في خلق كل من الجنسين على نحوٍ يجعله موافقاً للآخر، وملبياً لحاجته الفطرية - نفسية وعقلية وجسدية - بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار، يجد أن في اجتماعهما السّكن والاكتفاء والمودة والرحمة، لأن تركيبها النفسي والعصبي والعضوي ملحوظٌ فيه تلبية رغائب كل منهما، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد»[٤].

ولذلك سمي عقد النكاح، بالميثاق الغليظ في قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[٥].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٧٢.
(٢) سورة الروم، الآية: ٢١.
(٣) تفسير القرآن العظيم ج ٣، ص: ٤٣٩.
(٤) كتاب: في ظلال القرآن ج ٢١، ص: ٢٧٦٣.
(٥) سورة النساء، الآية: ٢١.

قال الإمام الطبري رحمه الله: قال مجاهد: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾[١] قال: «مجامعة النساء» وقوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[٢] أي ما وثقت به لهنّ على أنفسكم من عهدٍ وإقرار منكم بما أقررتم به على أنفسكم من إمساكهن بمعروف، وتسريحهن بإحسان وكان في عقد المسلمين[٣].

نجد في الآيات القرآنية أنه ﷻ لم يطلق على أيّ ميثاق مهما كان صفة ﴿غَلِيظًا﴾ إلا على ميثاق الزواج لأنه عقد وشركة إنسانية يجمع بوِسَاطتها بين رجلٍ وامرأةٍ فيكونان زوجين بكلمة الله يفضي كلاهما للآخر، ولا يقف عند حدود الجسد وإفضاءاته، بل يشمل العواطف والمشاعر والوجدانات والتّصورات والأسرار والهُموم، والتّجاوب في كل صورة من صور التجاوب[٤]؛ لذا فهو ميثاقٌ لا يُستهان به.

وهكذا نرى كيف أنّ الإسلام قد عظّم من شأن الزوجية والزواج بحيث لم يعد هناك مجال للشك في أنه الطريق الطبيعي المشروع للإحصان، وزيادة في الإيضاح أقول: إنّ قانون الزوجية يعتمد على ثلاثة أركان الأمر الذي يجب أن تدركه المرأة وتحاول قدر استطاعتها تحقيقه، والقيام به بحكم طبيعتها واستعدادها ومواهبها الفطرية، لتقوم بأداء المهمة الأولى والوظيفة الرئيسة في حياتها ألاَ وهي الزّوجية.

الركن الأول: السّكون الجنسي «الجسدي»:

إنّ الرغبة الجنسية هي من أقوى الغرائز البشرية على الإطلاق، وتأتي في الأهمية بعد الرغبة في الطعام مباشرة من حيث القوة والقدرة حتى ولو لم تكن هناك أية مغريات، وإن نشاطها الطبيعي المحض يتطلب التّوصيات السريعة،

(١) سورة النساء، الآية: ٢١.
(٢) سورة النساء، الآية: ٢١.
(٣) جامع البيان في تفسير القرآن ج ٤، ص: ٢١٥.
(٤) كتاب: في ظلال القرآن ج ١، ص: ٦٠٦.

وأيّ إنسان مهما بلغ من قوة العزيمة لا يستطيع تحمل وطأتها وخصوصاً في مواجهة المغريات المتكررة، لذا شرّع الله الزواج وجعله من سنن الأنبياء والمرسلين وحثّ عليه. يقول تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[١].

أي في أمر النساء، يقول الإمام الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[٢] أي ضعفاء عجزة عن ترك جماع النساء قليلي الصّبر عنه[٣]، وورد في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾[٤].

عن مجاهد وعطاء قال سلام بن سابور: الذي (لا طاقة لنا به) الغلمة[٥] [٦]. والرّجل والمرأة سواء في هذه الناحية كل منهما محتاج لتلبية نداء الغريزة الجنسية. وهي الفتنة التي تجذب الذكر والأنثى بعضهما إلى بعض، بما انطوت عليه من لذة جسدية ولا مفرَّ من إشباعها، ولئن كان الرّجل هو البادىء غالباً: يطلب الإعفاف بالزّواج، فإن المرأة لحيائها تأبَى أن تكون بادئةً ولذلك فهي مطلوبةٌ ومرغوبةٌ، وهذا ما عبّر عنه القرآن بالسّكون، والسّكون معناه عدم الحركة[٧].

ويقول الإمام القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾[٨] فأول اتفاق الرّجل بالمرأة سكونه إليها مما فيه من غليان القوة.. فإليها يسكن وبها يتخلص من الهياج. إلى أن يقول:

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٨.
(٢) سورة النساء، الآية: ٢٨.
(٣) جامع البيان في تفسير القرآن ج ٥، ص: ١٩ - ٢٠.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٥) الغلمة: هيجان شهوة النكاح.
(٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج ١، ص: ٤٣٣.
(٧) الجرجاني، التعريفات، ص: ١٢٥.
(٨) سورة الروم، الآية: ٢١.

فعليها (أي الزوجة) بذله (أي إجابته) في كل وقت يدعوها الزّوج، فإن منعتْه فهي ظالمةٌ وفي حرج عظيم[١]، وممّا يُؤكد ذلك من السّنّة الشريفة ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: «**إذا دعا الرّجلُ امرأتَهُ إلى فراشهِ فأبتْ أن تجيء لعنتْها الملائكةُ حتىٰ تُصبحَ**»[٢].

فهذا دليل على تحريم امتناع الزّوجة عند طلب الزّوج لها لغير عذر شرعي. وليس الحيض بعذر في الامتناع لأنّ له حقاً في الاستمتاع بما فوق الإزار[٣]، والدليل على ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: «وكان يأمرني فأتزر فيُبَاشِرُنِي وأنَا حائض»[٤].

لقد علّم الإسلامُ المرأةَ كيف تتطهر من النّجاسات الكبرى كالحيض والنفاس والجنَابة، وكذلك من الحَدث الأصغر.

فعن عائشة رضي الله عنها: أنّ أسماء سألتِ النّبيّ ﷺ عن غسل المحيض؟ فقال: «**تأخذ إحداكنّ ماءَها وسدرتها[٥] فتطهر، فتحسن الطهور ثم تصبّ على رأسها فتدلكه دلكاً شديداً حتىٰ تبلغ شؤون رأسها[٦] ثم تصبّ عليها الماءَ. ثم تأخذ فرصةً ممسّكةً [٧] فتطهرُ بها**» فقالت أسماء: وكيف تطهر بها؟ فقال: «**سبحان الله تطهرين بها**» فقالت عائشة - كأنّها تخفى ذلك - تتّبعين أثر الدّم[٨].

وسألته عن غسل الجنابة؟ فقال: «**تأخذُ ماءً فتطهر فتحسن الطهور أو تبلغ الطهور ثم تصب على رأسها فتدلكه حتى تبلغ شؤون رأسها، ثم تفيضُ عليها**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤، ص: ١٧.
(٢) صحيح البخاري كتاب النكاح، باب (إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها) ج ٧، ص: ٣٩.
(٣) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١، ص ٨.
(٤) الإمام البخاري، صحيح البخاري، كتاب الطهارة، باب (مباشرة الحائض) ج ١، ص ٨٢.
(٥) سدرتها، السدر: شجر النبق.
(٦) شؤون رأسها: أصول شعرها وذلك مبالغة في النظافة.
(٧) فرصة ممسكة: أي قطعة قطن مطيبة بالمسك.
(٨) أثر الدم: قال جمهور العلماء: أي تغسل الفرج.

الماءَ». فقالتْ عائشةُ: «نِعْمَ النّساءُ نِسَاءُ الأنصار، لم يكنْ يمنعهنّ الحياءُ أن يتفقّهنَ في الدِّين»[١].

قال الإمام البدر العيني رحمه الله: وفي الحديث استحباب التّطيب للمغتسلة من الحيض والنّفاس على جميع المواضع التي أصابها الدّمُ من بدنها: قال المحاملي: لأنّه أسرع في العلوق وأدفع للرائحة الكريهة[٢].

هكذا يجب على المرأة أن تكون نظيفة في كل أوقاتها، وخاصة بعد انقضاء فترة الحيض والنّفاس، ممّا يزيد من حبّ زوجها وشوقه إليها فيستريح إليها ويشعر بالأنس والراحة كلّما اقترب من زوجته التي تكون له بمثابة الواحة الظليلة التي تُؤويه وتُظلّه بحنانها كلّما لجأ إليها من صعوبة الحياة وهجيرها، فيتجدّد عزمه ونشاطه لمواجهة أعباء الحياة وتكاليف المعيشة، والكدح في سبيل الرّزق وأداء العبادات والقيام بالفروض والواجبات.

الرّكن الثاني من أركان الزوجية: «المودة والحب والعاطفة الروحية بينهما»:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً﴾[٣]، أي التّواد والتّراحم بعصمة الزواج بعد أن لم تكن بينكم سابقةَ معرفةٍ ولا لقاءٍ وسببٍ يُوجب التّعاطف من قرابةٍ أو رحم[٤]. وعن ابن عباس قال: «**المودة: حبّ الرّجل امرأته**»[٥].

فعلى كلٍّ من الزوجين أن ينمي هذا الحب وتلك المودة ويستبقيه بالتعاون على مهام الحياة، وفهم كل منهما لدوره ووظيفته وأدائها على أكمل وجه، مع أنّ العبء الأكبر في هذه النّاحية أيضاً يقع على المرأة حسب علمي وتجربتي باعتباري زوج، فإن أفضل الزّوجات هي من تتوفر فيها خصائص النّفس

---

(١) الإمام مسلم، صحيح مسلم. كتاب الحيض، باب (استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك) ج ١، ص: ٢٦١.
(٢) عمدة القاري/ ج ٤، ص: ٢٨٧.
(٣) سورة الروم، الآية: ٢١.
(٤) الزمخشري، الكشاف ج ٣، ص: ٢١٨.
(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج ١٤، ص: ١٧.

الكريمة، ومزايا الروح السّامية من صفات حسنة ومعان جميلة وخُلق طيّب يمثل الإنسانية الرّاقية، والشخصية المؤمنة. قال تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾[١] الآية.

قال رسول الله ﷺ: «**الدّنيا متاعٌ وخيرُ متاعِ الدّنيا المرأةُ الصّالحة**»[٢].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾[٣] أي من النساء ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾[٤] قال ابن عباس وغير واحد: يعني المطيعات لأزواجهنّ. ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾[٥] قال السّدّي وغيره: أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسِها ومالِه[٦]، هذه الصفات التي يجب على الزوجة المؤمنة أن تتصف بها، فمن طبيعة المؤمنة الصّالحة ومن صفاتها الملازمة لها بحكم إيمانها وصلاحها أن تكون قانتةً مطيعةً... والقنوتُ والطّاعة عن إرادة وتوجهٍ ورغبةٍ ومحبّةٍ، لا عن قسرٍ وإرغام.

فالطّاعة وحسن العشرة سهلة على نفس المرأة المفطورة على المسالمة والموادعة والرّفق واللّين، وهو فن وذوق وتربية اجتماعية عالية، وبها تدوم المحبة والألفة والمودة وتحل معظم المشاكل المستعصية بالأسلوب المهذب والخضوع اللين والبسمة الحانية والنظرة الودود والمجاملة اللّبقة، فتكسب بذلك المرأة ثقة زوجها ودوام محبته وشعوره بالسعادة..

الطّاعة أمرٌ عام يدخل فيه تنفيذُ كلِّ أوامر الزّوجِ في حدودِ الشّريعة ومراعاة شعوره، والابتعاد عن كل شيء لا يرضاه. فالمسؤولية الأساسية للزوجة أن تدرس أخلاق وطباع زوجها وتعرف ما يرضيه وما يبغضه مع التزام أوامر الشّرع حتى تدوم المودة بينهما، فلا تدخل أحداً بيتَهُ إلّا بإذنه، ولا تخرج إلّا بإذنه،

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.
(٢) صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب (خير متاع الدنيا) ج ٢، ص: ١٠٩٠.
(٣) سورة النساء، الآية: ٣٤.
(٤) سورة النساء، الآية: ٣٤.
(٥) سورة النساء، الآية: ٣٤.
(٦) تفسير القرآن العظيم ج ١، ص: ٤٩١.

ولا تصوم نفلاً إلا بإذنه، يقول رسول الله ﷺ: «**لا يحلّ للمرأة أنْ تصومَ وزوجُها شاهد إلّا بإذنه ولا تأذن في بيته إلا بإذنه**»(١) ويقول ﷺ: «**والمرأة راعية في بيتِ زوجها وهي مسؤولةٌ**»(٢) وخير شاهد على أن طاعة الزّوج والقيام بواجب الأسرة والأولاد يعدل ثواب الجهاد في سبيل الله ما قاله رسول الله ﷺ لوافدة النّساء حين طلبتْ منه مشاركة الرّجل في الجهاد والجُمَع والجَمَاعات، قوله: «**إنّ حُسْنَ تَبَعُّلِ المرأة لزوجها يعدل ذلك كلّه**»(٣).

الرّكن الثالث من أركان الزوجية: هو الرحمة التي تربط بين الرّجل وزوجته وبين جميع أفراد العائلة من أبناء وحفدة:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(٤)، الآية.

قال ابن عباس ومجاهد: المودّة: الجماع، والرحمة: الولد.

وقال الحسن: المودّة والرحمة: عطف قلوبهم بعضهم على بعض(٥).

يقول السيد رشيد رضا في تفسير هذه الآية: فقَيد سكون النفس الخاص بالزّوجة ولم يقيد المودّة والرحمة لأنّها تكون بين الزوجين ومن يلتحم معها بلحمة النّسب، وتزداد وتقوى بالولد(٦).

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾(٧)، الآية.

---

(١) صحيح البخاري كتاب النكاح، باب (لا تأذن المرأة في بيت زوجها لأحد إلا بإذنه) ج ٧، ص: ٣٩.
(٢) صحيح البخاري كتاب النكاح، باب ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ ج ٧، ص: ٣٤.
(٣) المنذري، الترغيب والترهيب كتاب النكاح ج ٤، ص: ١٢٢.
(٤) سورة الروم، الآية: ٢١.
(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن/ ج ١٤، ص: ١٧.
(٦) تفسير المنار ج ٥، ص: ٣٢.
(٧) سورة النحل، الآية: ٧٢.

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية السّابقة: ومن رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً وجعل الإناث للذكور، ثم ذكر سبحانه أن جعل بين الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين. قاله ابن عباس وعنه قال: بنوك حيث يحفدونك ويرفدونك ويُعينوك ويخدموك[١].

إنّ نعمة الذّرية للإنسان كبيرة فكلا الزوجين لا تعمّ لهما السعادة والاستقرار إلا بعد الإنجاب الذي هو المقصد الرئيسي من الزواج لأن الإنسان بطبعه يحب أن يمتد ذكره وأثره فيحس بهذا الامتداد في الأبناء والأحفاد الذين يرثونه بعده، والرحمة لا تكتمل إلّا بعواطف الأمومة والأبوة رحمتها بالأولاد. هذه العواطف هي أساس الرابطة الاجتماعية بين أفراد الأسرة الواحدة وتكامل البناء العائلي الذي يكون نواة المجتمع بأسره، فإن صلحت الأسرة وسعدت صلح المجتمع وسعدت الإنسانية.

تلكم هي الأُسس والأركان التي يقوم عليها قانون الزّوجية وما ينتج منها من ثمار عظيمة وجليلة حسية ومعنوية «السّكن - المودّة - الرحمة» وأعظم من ذلك كله وأهمه تحقيق تلك الثمرة التي من أجلها شرع الزواج ومن أجلها خلق الله الزوجين الذكر والأنثى «تكاثر النسل البشري» وذلك لحفظ النوع واستدامته إلى أن يرث الله الأرضَ ومَنْ عليها. ومن هنا تأتي وظيفة المرأة المهمة الخاصة بها بتأهيل عضوي ونفسي خاص انفردتْ به، كما بينت في فصل الفروق بين الذكر والأنثى جسمياً وعقلياً ونفسياً.

ثانياً - «وظيفة الأُمومة»:

لقد خصّ الله المرأةَ دونَ الرّجل بهذه المهمة العظيمة وكرّمها ورفعَ منزلتَها وأعلى شأنَها، لأنها هي الأصل وهي المستقر فهي السّببُ في وجود الجنس البشري بإرادة الله، ومربية الإنسانية، محضن الأجيال الجديدة، إنّها حارسةُ العش الذي تدرج فيه الطفولة وتجد فيه تلبية كاملة لجميع مطالبها في مراحل

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٢، ص: ٥٧٧.

حياتها كافّةً وأطوار نموّها، إنها الأمينة على أنفس وأغلى عناصر الوجود الإنساني، وإن عملها في إتقان هذا العنصر والاهتمام به وتنويره وصقله وتربيته لا يعدله أيُّ عمل في أيّ مجال، لتعلّق المستقبل الإنساني بها، وقيام التّمدن البشري عليها، فهي أقدس وظيفة وأشرف مهنة، ومكافأة لهذه المهمة العظيمة، توالتْ وصايا الكتاب والسُّنّة برعاية الأم والقيام بشأنها وردّ بعض الجميل إليها، يقول تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[١].

يقول سيّد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك: «هذه الصّورة الموحية ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾[٢] ترسم ظلال هذا البذل النّبيل! الأمُّ بطبيعة الحال تحتمل النّصيب الأوفر، وتجودُ بهِ في انعطاف أشد وأعمق وأحنّ وأرفق!»[٣].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله مَنْ أحقُّ النّاسِ بِحُسْنِ صحابتي؟ قال: «**أُمُّكَ**» قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «**أُمُّكَ**» قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «**أُمُّكَ**» قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «**أَبُوكَ**»[٤]. وذلك لِما لها من عظيم الفضل، فهي أحقّ بالبر والصلة وهي من ناحية أخرى أكثر ضعفاً من الأب، كما أنّ خروجها لقضاء حاجاتها أمر تعتوره بعض المصاعب. ويقول الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: فهذا الحديث يدلّ على أنّ محبة الأمّ والشّفقة عليها ينبغي أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب، لذكر النّبيّ ﷺ الأم ثلاث مرات، وذكر الأب في الرابعة، لصعُوبة الحمل وصعُوبة الوضع وصعُوبة الإرضاع والتربية، تنفرد بها الأم دُونَ الأب، فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب[٥].

هذا هو الشّعور الفطري للأنثى في الحياة إنّها ترغب دوماً أن تكون زوجة

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٤.
(٢) سورة لقمان، الآية: ١٤.
(٣) في ظلال القرآن ج ٢١، ص: ٢٧٨٨.
(٤) صحيح البخاري كتاب الأدب، باب (من أحق الناس بحسن الصحبة) ج ٨، ص: ٢.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ج ١، ص: ٢٣٩.

وأمَّا مهما شغلتْ من الوظائف الأخرى، فحنينُهَا دوماً إلى فطرتها الأصلية، وفي هذا يقول الدكتور كاريل: الحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرّجل فكل خلية من خَلايَا جسمها تحملُ طابَعَ جنسِها، والأمر صحيح نفسه بالنسبة لأعضائها، وفوق كل شيء بالنّسبة لجهازها العصبي، فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للّين مثل قوانين العالم الكوكبي، فليس في الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها، ومن ثمَّ فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي، فعلى النّساء أن ينمينّ أهليتَهُنَّ تبعاً لطبيعتهنّ، من غير أن يُحاوِلْنَ تقليد الذّكور، فإنّ دورهُنّ في تقدّم الحضارة أسمى من دور الرجال، فيجب أن لا يتخلينَ عن وظائفهنّ المحدودة[١].

البحث الثالث:

أدوار وظائف الأمومة وأعباؤها

الدّور الأول: الحمل:

إنّ الحمل هو الثّمرةُ الطبيعيّة للقاء الزوجي بينَ الذّكر والأنْثى والرّغبة في الأمومة غريزة فطرية وأمر واقعي بالنسبة للمرأة، نظراً لتكوينها الجسمي والعقلي والنّفسي كما بينتُ سابقاً، إلى درجة أنّ العُقم يشكل لها اضطراباً عضوياً وعصبياً ونفسياً، وفراغاً لا يسدُّه أيُّ عمل آخر مهما كان نوعه. فلا يهنأ لها بالٌ بعد الزواج إلّا إذا استقرّ الحملُ لكي تتوّج سعادتها بمولود تقرُّ به عينَاهَا. وهذا الدّور يعتبر من أدقّ وأصعب الأدوار بالنسبة للمرأة ولذلك ورد ذكره في القرآن الكريم. يقول تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[٢].

(١) الإنسان ذلك المجهول - ص: ١٠٩. ط ٣٠، تعريب شفيق أسعد فريد.
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

وفي آية أخرى يصفُ الحملَ فيقولُ سبحانه: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾[١].

يقول الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾[٢]: أي حملته في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف، وقيل المرأة ضعيفة الخلقة ثم يضعفها الحمل[٣].

ويقول سيّد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[٤] تركيبُ الألفاظ وإيقاعها يكاد يجسّم العَنَاءَ والجُهْدَ ويلهث بالأنفاس إنها صورة الحمل وبخاصة في أواخر أيامهِ وصورةِ الوَضْعِ وطَلْقهِ وآلاَمِهِ[٥].

إن فترة الحمل غنية بالإحساسات من حيث الشعور بالضعف والسعادة والنّشوة المشوبين بالحذر والحيطة وتحمّل الآلام. فعلى الأم أن تتعرف على أطوار الحمل في أثناء الشهور التّسعة لتكون على استعدادٍ ودرايةٍ بما يجدّ عليها في كلِّ شهرٍ من شهورِ الحمل، وقد ورد في القرآن الكريم وصف لمراحل تطور الجنين، قبل أن يصل العلم الحديث إليها، بل بما لم يصل إليه العلم إلى الآن من أسرار خلق الله. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[٦].

ويقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٧].

ويقول ﷺ الذي لا ينطقُ عن الهوَى إنْ هو إلّا وحيٌ يُوحَى: «**يدخلُ الملَكُ**

(١) سورة لقمان، الآية: ١٤.
(٢) سورة لقمان، الآية: ١٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن/م ٧، ج ١٤، ص: ٦٤.
(٤) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.
(٥) في ظلال القرآن، ج ٢٦، ص: ٣٢٦٢.
(٦) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢ - ١٤.
(٧) سورة آل عمران، الآية: ٦.

على النّطفة بعدَما تستقرُّ في الرّحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة. فيقولُ: يا ربّ: أشقيٌّ أو سعيدٌ؟ فيكتبان، فيقولُ: أي ربّ أذكرٌ أو أنْثَى؟ فيكتبان، ويُكتبُ عملُهُ وأثرُهُ وأجلُهُ ورزقُهُ، ثم تُطوَى الصُّحفُ فلا يُزاد فيها ولا يُنْقَصُ»[١].

سبحانه وتعالى، لا حدود لقدرته وعظمته وحسن تدبيره في خلقه، إنه الإعجاز الإلٰهي يتجلى لنا في أروع صورةٍ وبيانٍ ليترك مجالاً للتفكير وللتّدبّر. ولا مجال هنا للإطالة والإيضاح فمن أراد ذلك فله الرّجوع إلى كتب الطبّ مفصلة. والمهم بيانُهُ هنا هو ما يجبُ على الأُمّ فعلُهُ ومراعاتُه في هذا الدور الذي يطولُ مدةَ تسعةِ أشهرٍ، فهي المسؤولة عنه باعتباره روحاً وحياةً جديدة تخلق في بطنها وقد أخذ الله منها الميثاق بألا تقتله عمداً أو تتسبَّبُ في قتله. قال تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾[٢].

يقول الإمام القرطبي رحمه الله: «أي لا يئدن المولودات، ولا يسقطن الأجنّة»[٣]. ويفسره كذلك ابن كثير رحمه الله بقوله: «وهذا يشمل قتله بعد وجوده كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق «الفقر»، ويعم قتله وهو جنين كما قد يفعله بعضُ الجاهلات من النساء، تطرح نفسها لئلا تحبل، إمّا لغرضٍ فاسدٍ أو ما أشبهه»[٤].

وإن فعلتْ ذلك فقد استوجبت العقوبة من الله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾[٥]. هذا يعني الإجهاض «الإسقاط» المتعمّد الجنائي، وليس الإجهاض الطبيعي المباح نتيجة مرض أو ضعف عام أو بأمر الطّبيب المسلم الذي ينصح بذلك لِما فيه من خطر على صحة الأم وحياتها وذلك على مبدأ (الضرورات تبيح المحظورات).

---

(١) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب (كيفية الخلق الآدمي)، ج ٤، ص: ٢٠٣٧.
(٢) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٨، ص: ٣٥٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص: ٣٥٤.
(٥) سورة التكوير، الآيتان: ٨، ٩.

ومن الأمور المهمة بهذه القضية: ضرورة إدراك أن حياة الإنسان هي وديعة وأمانة يجب المحافظة عليها وتجنيبها الضرر بكافة أنواعه وأشكاله، ومن شدّة حرص الإسلام وعنايته الفائقة بالأم وجنينها، أوجب على الزّوج النّفقة عليها «وإنْ كانتْ مطلقةً» حتى لا تهمل ويهمل معها جنينها فيتعرضان للهلاك والضّرر، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[١]، الآية.

بالإضافة إلى أنّه خفَّف عنها بعض التّكاليف الشّرعية حيث أباح لها الفطر في رمضان إن خافت على نفسها أو جنينها وعليها القضاء فقط[٢].

وقد أثبت الطّبُّ الحديث أنّ المرأة الحامل تتعرض لكثير من المخاطر والأمراض في أثناء فترة الحمل، وينصح الأطباء بوجوب اتباع العديد من الإرشادات الطّبيّة واتّباع شروط السّلامة من الناحية النفسية والجسمية لأن ما يصيبها ينتقل إلى طفلها، فهي مصدر غذائه وصحته ومرضه واستقامة أعضائه أو تشوهها واعتدال مزاجه أو اضطرابه، فيجب الامتناع عن تناول بعض الأدوية والعقاقير وعدم التّعرّض للأشعة السّينيّة وعدم تعاطي التّدخين وجميع الأشربة الكحولية والحبوب الضارة، وعليها أن تتناول الغذاء المتوازن، وتتجنّب السّهر والقلق والاضطرابات الانفعالية[٣]، وعليها قبل كل شيء أن تلتزم بأداء الفرائض والتّقرّب إلى الله بالنّوافل وعمل الخير وقراءة القرآن والذكر والدّعاء ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[٤] لأنّ الحالة النّفسية تتبع الحالة الجسدية، فهي بين الخوف والرّجاء وبين الحزن والفرح، فذكر الله يُهدّىء النّفس ويُطمئن القلب، فعليها أن تطلب من ربّها الذّرية الصّالحة كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[٥].

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٦.
(٢) عبد الرحمٰن الجزيري، الفقه على المذاهب الأربعة، كتاب الصيام/ ٢، ص: ٥٧٣.
(٣) لمزيد من التفصيل انظر كتاب «دليل المرأة الطبي» تأليف د. ديفيد روفيك.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٢٨.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.

وعلى المحيطين بها من أفراد أسرتها وخاصة الزّوج أن يشعرَها بالحبّ والحنان ويُبعدَ عنها أسباب القلق والنّكدَ والإزعاجَ، وعليها أن تؤمن بقضاء الله وقدره فيها وفرجه وتيسيره لها في جميع أحوالها لا سيما حينَ تحين ساعة الولادة، وهو الدّور الثاني الذي تضطلعُ به الأُمُّ.

الدّور الثاني: الوضع:

إنّ آلام الوضع والولادة «الطلق» تفوق أيَّ ألمٍ، فهي عملية شاقّة شديدة ومؤلمة حتى يتم خروج الجنين إلى عالم الحياة، وصدق الله حين قال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[١] فكما أنّ حمله كربٌ ووهنٌ فكذلك وضعه لا يقل ألماً وشدّةً ومشقةً.

وقد جاء ذكر المخاض في القرآن الكريم قال تعالى في سورة مريم: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[٢]. رغم كل هذا نجد أن الأم تنسى كل تلك الآلام ويفتر ثغرها ببسمة الرضا حينَ ترى مولودها بجانبها وهو في أتمّ الصّحة والعافية، فتشعر أنّ سعادتها لا تُوصف!.

وبما أنّ الولادة عملية شديدة الخطورة على الأم والجنين، ينصح الأطباء بمراجعة الطبيبة المسلمة للقيام بما يلزم وتزويدها بالنصائح والإرشادات بالنسبة لهذه الفترة الحرجة، هذا الأمر ليس بجديد، فقد تعودت أمهاتنا في السّابق الاستعانة «بالقابلة» المرأة الخبيرة التي تساعد الأم في عملية الوضع.

فقد وردَ عن السّيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها كانت تستعين بقابلة تدعى «سلمى مولاة صفية بنت عبد المطلب»[٣] وسلمى هذه هي التي قبلت إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وكانت قابلة بني فاطمة كلهم[٤] وهذا الوصف «قابلة»

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.
(٢) سورة مريم، الآية: ٢٣.
(٣) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٤، ص: ٢٨٢.
(٤) ابن عبد البر القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج ٤، ص: ٣٢٨ هامش الإصابة.

يعني أنّها كانت تبذل جهدها مع الأم لتكون أول من تستقبل الوليد سليماً معافى بحول الله وقوته وهذا يدل على احتفال العرب بالمواليد والعناية بهم.

ومن النّصائح التي تزود بها الأم بعد الوضع تناول الرّطب مع السّوائل. فقد ورد في ذلك قرآن يُتْلَى فقال تعالى في سورة مريم: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾[1].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في فائدة الرّطب: فقال عمر بن ميمون: ما من شيء خير للنّفساء من التّمر والرّطب ثم تلا هذه الآية[2].

ورد في تفسير القرطبي: أنّ الرّبيع بن هيثم قال: ما للنّفساء عندي خير من الرّطب، لهذه الآية. لو علم الله شيئاً هو أفضلَ من الرّطب للنفساء لأطعمه مريم!! وقال الشّيباني في ﴿وَقَرِّى عَيْنًا﴾[3] معناه نامي، حضّها على الأكل والشّرب والنوم[4].

وقد ثبت في الطب الحديث فائدة التّمر والرّطب من النّاحية الغذائية والصّحية. والمعجز أن القرآن الكريم قد سبق العلم في هذا الاكتشاف وخصوصاً توقيت أكله مع مخاض الولادة، وإليك ما اكتشفه العلمُ الحديث الآن:

١ - تبيّن في البحوث المجراة على الرطب (أي ثمرة النّخيل) النّاضجة أنها تحوي مادة مقبضة للرحم، تقوّي عمل عضلات الرحم في الأشهر الأخيرة للحمل فتساعد على الولادة من جهة كما تقلل من كمية النّزف الحاصل بعد الولادة من جهة أخرى.

---

(١) سورة مريم، الآيات: ٢٤ - ٢٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص: ١١٧.
(٣) سورة مريم، الآية: ٢٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ج ١١، ص: ٩٦ - ٩٧.

٢ - الرّطب يحوي نسبةً عالية من السكاكر البسيطة السّهلة الهضم والامتصاص مثل سكر الجلوكوز، ومن المعروف أن هذه السّكاكر هي مصدر الطاقة الأساسي. وهي الغذاء المفضّل للعضلات وعضلة الرحم من أضخم عضلات الجسم، وتقوم بعمل جبّار أثناء الولادة التي تتطلّب سكاكر بسيطة بكميات جيّدة ونوعية خاصة سهلة الهضم سريعة الامتصاص كتلك التي في الرطب. ونذكر هنا بأن علماء التّوليد يقدمون للحامل وهي بحالة المخاض الماء والسّكر بشكل سوائل سكرية «سائل الجلوكوز». ولقد نصّت الآية الكريمة على إعطاء السّوائل أيضاً مع السّكاكر بقوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي﴾[١] وهذا إعجاز آخر!.

٣ - الرّطب من المواد المليّنة التي تُنظّف القولون.. ومن المعلوم طبياً أنّ الملينات النباتية تفيد في تسهيل وتأمين عملية الولادة بتنظيفها للأمعاء الغليظة[٢].

هكذا نرى كيف أنّ الطّبّ الحديث يُؤكّد ما جاء به القرآن منذ زمن بعيد أنّه الحق من ربّك. ثم يعقب الولادة «فترة النفاس» الذي تظل فيه المرأة تُعاني من الإرهاق والتّعب بعد الجهد الشّاق الذي بذلته أثناء عملية الولادة. فمن رحمة الله بها أن خفّفَ عنها بعضَ التكاليف الشّرعية مثل الصّلاة والصّوم لمدة قد تطول إلى أربعين يوماً حسب تحقيق حالة الطّهر عندها فهي تقضي الصّوم ولا تقضي الصّلاة بعد انقضاء فترة النّفاس.

عن أمّ سلمة قالتْ: كانتِ النّفساء على عهدِ رسول الله ﷺ تجلِسُ أربعينَ يوماً. وكنّا نطلي وجُوهنا بالوَرْس مِنَ الكَلَفِ. وهو حديث حسن صحيح[٣].

وقد أجمع أهل العلم من أصحاب النّبيّ ﷺ والتّابعين ومن بعدهم على أن النّفساء تدع الصّلاة أربعين يوماً إلّا أنْ ترى الطّهر قبل ذلك فإنها تغتسل

---

(١) سورة مريم، الآية: ٢٦.

(٢) د. عبد الحميد دياب، وأحمد قرقوز، مع الطّبّ في القرآن، ص: ٢٨، ط ٢.

(٣) ابن ماجه، سنن ابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب: (النفساء كم تجلس)، ج ١، ص: ٢١٣.

وتُصلي[١]. وينصح الأطباء الأم بعد الولادة بالاهتمام بنظافتها الخارجية والداخلية لأنّ عدم الانتباه والجهل بهذه الأمور يُؤدّي إلى مضاعفات وأمراض في الجهاز التناسلي. وعليها القيام ببعض التمرينات الرياضية الخفيفة التي ينصح بها الطّبيب[٢].

وفي هذه الفترة تبدأ مرحلة الرّضاعة التي لا تقل أهمية عن الأدوار السّابقة وخصوصاً بالنّسبة للوليد.

الدّور الثالث: الرّضاعة:

دور الرضاعة من أخطر الأدوار التي يمر بها الوليد الجديد، فدور الأمّ بالغ الأهمية في هذه الفترة لذلك لم يترك جلّ وعلا تقريره لأحدٍ بل أنزل قرآناً يُتلى على مرّ العصور والأزمان، ليؤكّد في كل زمان ومكان أهميّة الرّضاعة الطبيعية للطفل والأم معاً.

١ - قال تعالى: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٣].

٢ - ويقول تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[٤].

٣ - وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾[٥].

---

(١) المباركفوري، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ج ١، ص: ٤٢٩.
(٢) لمزيد من الاطّلاع انظر كتاب «دليل المرأة الطبي»، ص: ١٤٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٤) سورة لقمان، الآية: ١٤.
(٥) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

ورد في تفسير القرطبي رحمه الله لقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾[١] قال الضحّاك: أيْ هنّ أحق برضاع أولادهنّ من الأجنبيات لأنهنّ أحنُّ وأرقُّ، وانتزاع الولد الصغير إضرارٌ به وبها.

وقوله: ﴿حَوْلَيْنِ﴾[٢] أي سنتين كاملتين لمن أراد أن يتم الرّضاعة، دليل على أنّ رضاع الحولين ليس حقاً فإنّه يجوزُ الفِطامُ قبلَ الحَوْلين.

قال جمهور المفسّرين: إن هذين الحولين لكلِّ ولدٍ.

وروي عن ابن عباس قال: هما في الولد يمكثُ في البطن ستة أشهر، فإنْ مكث سبعة أشهر فرضاعهُ ثلاثةٌ وعشرون شهراً، فإن مكث ثمانية أشهر فرضاعه اثنان وعشرون شهراً، فإن مكث تسعة أشهر فرضاعه واحد وعشرون شهراً، لقوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[٣]. وعلى هذا تتداخل مدة الحمل ومدة الإرضاع ويأخذ الواحد من الآخر[٤].

وهذا بالنّسبة لمدة الرّضاع، أمّا بالنسبة لحكم الرّضاع يقول تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾[٥]. فقد روى البخاري عن يونس عن الزهري: نهى الله أن تُضارّ والدةٌ بولدها. وذلك أن تقول الوالدة لستُ مرضعته، وهي أمثل له غذاء وأشفق عليه وأرفق به من غيرها، فليس لها أن تأبى بعد أن يعطيها من نفسه ما جعل الله عليه، وليس للمولود له أن يُضارَّ بولده والدته فيمنعها أن ترضعه ضراراً لها إلى غيرها، فلا جناحَ عليهما أن يسترضعا عن طيب نفس الوالد والوالدة ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾[٦] بعد أن يكون ذلك عن تراضٍ منهما وتشاور فصاله: فطامه[٧].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٣) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن: ج ٣، ص: ١٦٠ - ١٦٣.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٧) صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ ج ٧، ص: ٨٣.

ولأهمية الرّضاعة الطبيعية للوليد، قرر ﷻ النفقة للأمّ المرضع حتى بعد الطلاق وذلك لئلا يتضرر الوليد نتيجة إهماله.

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[١] الآية.

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: على والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهنّ بالمعروف أي بما جرت به عادة أمثالهنّ من غير إسرافٍ ولا إقتار بحسب قدرته في يساره، وتوسطه وإقتاره... إلى أن قال: قال الضّحاك: إذا طلّق زوجته وله منها ولد فأرضعتْ له ولده وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف[٢].

إنّ الإسلام هو أعظم تشريع يدافع عن حقوق الإنسان قبل أن تنادي به المدنية الحديثة الزائفة. هذا ما أثبته القرآن الكريم والسّنّة الشّريفة. لقد حثَّ الله ﷻ الأمهات أن يُرضِعْنَ أولادَهنّ. فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[٣].

لأن أفضل الرّضاع وأطيبه هو الممتصّ من ثدي الأمِّ الصّحيحة بعد الولادة فهو الغذاء الطبيعي الملائم للوليد قد أعده الله له بنسب ومقادير معينة لا يضاهيه أي نوع آخر من أنواع الحليب مهما كان يتصف بالجودة كمًّا وكيفاً، إنه صنع الله الذي أتقن كلَّ شيء صنعه في الوقت الذي بدأت فيه الصيحات والبيانات والقرارات تتوالى وتصدر عن المنظمات الدّولية لحقوق الإنسان ومنظمة الصحة العالمية بضرورة إرضاع الأم لطفلها، وبيان فوائد الرّضاعة الطبيعيّة وخطر الرّضاعة الصناعية على الطفل. إلا من أن بعض الحالات المرضية التي يجب فيها الامتناع عن الإرضاع كالأمراض المعدية التي تصيب الأم أو بعض الأمراض الخطيرة كالصرع والجنون وفقر الدم وغير ذلك من الأمراض التي ينصح فيها الطبيب المسلم الأم بالامتناع عن الإرضاع فتختار له مرضعاً سليماً من كل الآفات والأمراض الجسدية والعصبية والعقلية. ولقد كانت قبائل العرب

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم ج ١، ص: ٢٨٣.
(٣) سورة القصص، الآية: ٧.

تلتمس المرضعات من غير القبائل المنتمية إليها، طلباً في قوة الجسم وصفاء الفكر وفصاحة اللّسان للطفل. وكلنا يعلم أنّ مرضعة النّبيّ ﷺ من قبيلة بني سعد هي السيدة «حليمة السعدية»[١].

لقد أثبت الطب الحديث فوائد الرّضاعة الطبيعية للطفل صحياً ونفسياً، فمن النّاحية الصّحية:

١ - فلبنُ الأمِّ يُعتبر من أفضل أنواع الغذاء للطفل فهو معقّم جاهز لأنّه لا يتعرض للتّلوّث الجرثومي كما في الإرضاع الصّناعي، بالإضافة إلى ثبوت درجة حرارته وملائمته لحرارة الطفل، علاوة على ذلك بأنّه لا يكلف أي شيء من النّاحية الاقتصادية.

٢ - لبن الأم سهل الهضم لاحتوائه على خمائر هاضمة تساعد المعدة على الهضم.

٣ - لبن الأم لا يماثله أي لبن آخر لأنّه صُمّم ورُكّب ليفيَ بحاجات الطفل يوماً بعد يوم، فتركيب «اللبأ» وهو السائل الأصفر الذي يُفرزه الثّدي بعد الولادة مباشرة، يحتوي على كميّات مركّزة من البروتينات المهضومة والمواد المحتوية على المضادات الحيوية للميكروبات والجراثيم فينشأ في الطفل مناعة ضد الأمراض.

٤ - تكثر نسبة الوفيات المفاجئة في الأطفال الذين يرضعون رضاعة صناعية (موت المهاد) عن نسبة إخوتهم الذين يرضعون رضاعة طبيعية من الثدي.

٥ - ينشأ الطفل وينمو سليماً من الأمراض إذا رضع رضاعة طبيعية، على حين يهيّىء الإرضاع الصناعي الطفل للإصابة بأمراض مختلفة كالالتهابات وحالات النزلة المعوية والمغص وغير ذلك من الأمراض الكثيرة[٢].

---

(١) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة ج ٤، ص: ٢٧٤.

(٢) لمزيد من الاطّلاع انظر المراجع التالية: كتاب (خلق الإنسان بين الطب والقرآن)، كتاب (عمل المرأة في الميزان) د. محمد علي البار، وكتاب (مع الطب في القرآن) د. عبد الحميد وأحمد قرقوز، وكتاب (دليل المرأة الطبي) د. ديفيد رورنيل.

أمّا من النّاحية النّفسية فقد أثبت الطّب النّفسي الحديث أن الإرضاع الطبيعي يقوي الارتباط العاطفي بين الأم ووليدها، ويجعل الأم أكثر عطفاً وعناية بوليدها فهي ليست عملية مادية فحسب، بل هي رابطة معنوية وتكوين نفسي بالنّسبة للرّضيع. ويطلق علماء النّفس على هذه المرحلة «المرحلة الفمية» وهي تستغرق السنة الأولى من عمر الطفل، وأساس هذه التّسمية راجع إلى أن الطفل تتركز حياته في هذه المرحلة حول فمه يستقبل بوساطته الغذاء كما يستقبل الحب والحنان والأمن، لذا فإنّ ثدي الأم لا يشبع جوع الطفل فحسب بل يحمل إليه أيضاً الحبَّ والعطفَ والشعورَ بالأمن، وعلى القدر الذي تشبع به هذه الحاجات وعلى الدّرجة التي يحاط بها الطفل من الرّعاية يتوقف نموّ التّكوين النّفسي للطفل وشخصيته التي تظهر آثارها في مستقبل حياته سلباً وإيجاباً. فإن أخذ الطفلُ حقَّهُ من الرّضاعة الطبيعية والرعاية والعناية من أمه والمحيطين به فإنه ينشأ سليم النفس خالياً من العقد والاضطرابات النّفسية عطوفاً محبًّا للخير حنوناً على عكس من ينشأ على الرّضاعة الصناعية ويتربّىٰ على أيدي الخادمات أو الحاضنات فإنه ينشأ محروماً من العطف والحنان، ممّا يُولّد في نفسه العُقد والاضطرابات النفسية فينزع إلى الشّرّ والعنف[1].

على أن هذا الإشباع لا بدّ فيه من التّنظيم والاتزان، فلا إفراط ولا تفريط، فلا تسرع الأم بتلبية رغبات طفلها بمجرد البكاء ولا تتركه فترة طويلة يكثر من الصّراخ، بل لا بد من وضع نظام وسط لأن هذا النظام سيترك أثراً في مستقبله وحياته، ومن خلاله تتكون عاداته التي سيتعامل بها مع مجتمعه فإذا أساءت الأم استعمال وظيفتها تلك فاستخدمت الرّضاعة لكفه عن عمل ما كالبكاء مثلاً كان ذلك سبيلاً إلى اهتزاز بنيانه الأخلاقي. لقد نجح الإسلام في وضع الأساس المتين لمعاملة الطفل، إنّه يتعامل معه ككائن عضوي ونفسي معاً، فإذا كان

(١) انظر بالتّفصيل الكتب التالية: د. مختار حمزة، (مشكلات الآباء والأبناء)، د. محمود محمد عمارة، (تربية النشء في ظل الإسلام)، د. أحمد محمد عامر، (علم نفس الطفولة في ضوء الإسلام).

للجسد حاجات فللنّفس مطالب ولا بديل للأم في توفية حاجات الطفل مهما استحدث الناس من أمور يحاولون بها ملء فراغها.

الدّور الرابع: التّربية والحضانة:

إنّ هذا الدور له شأن عظيم وأثر كبير في حياة الطفل، فالطفولة عند الإنسان هي المرحلة الأولى من عمره تبدأ من الولادة وتنتهي إلى حين بلوغه سن الرشد. يقول تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾[١]. ويقول في آية أخرى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾[٢]، الآية.

فهاتان الآيتان تشيران إلى أنّ سنّ الطفولة يمتد من حين الولادة إلى حين البلوغ، وفي هذه السن يكمل عقل الإنسان ويقوى جسمه ويكتمل تمييزه ويصبح مخاطباً بالتّكاليف الشّرعية كلها على سبيل الوجوب. ومرحلة الطفولة من أهم مراحل العمر وأكثرها خطورة لأنها أساس لمراحل حياته التالية وجذور لمنابت الإدراك الإنساني، ففيها تنمو مواهب الإنسان وتتفتح مداركه وتتحدد ميوله واتجاهاته نحو الخير أو الشر، وفيها تأخذ شخصيّتُهُ في التّكوين والتّشكّل لتصبح مميّزة عن غيرها فكما يغرس فيها من بذور الخير أو الشّر تؤتي أكلها في مستقبل حياته. وفي هذه المرحلة يتعلّم فيها الطفل من مجتمعه ويكتسب العادات والتقاليد. لذلك فإنّ أول ما تتفتح عليه عينا الطفل هي أمُّهُ فتحضنه وتحنو عليه فيشعر بالأمان والاطمئنان، لذا فإن دور الأم في التّربية بالغ الأثر، يقول رسول الله ﷺ: «**كلكم راعٍ وكلّكم مسؤولٌ عن رعيته، والأمير راع والرّجل راع على أهل بيته، والمرأة راعيةٌ على بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيّتِهِ**»[٣]. والرّعاية: هي الحفظ والأمانة[٤].

---

(١) سورة النور، الآية: ٥٩.
(٢) سورة الحج، الآية: ٥.
(٣) صحيح البخاري، كتاب النكاح باب (المرأة راعية في بيت زوجها) ج ٧، ص: ٤١.
(٤) البدر العيني، عمدة القارىء ج ٢، ص: ١٦٨.

إذاً فالآباء والأمهات عليهم مسؤولية التّربية والرّعاية والحفظ تجاه الأولاد، ولكن تخصيص المرأة بالذكر في الحديث له دلالتُهُ وأهميّتُهُ.

فالمرأة في بيت زوجها مسؤولة، ومؤتمنة وموكّلة وربّة مملكةٍ، رعيتها البنات والبنون، والزوج الرؤوم، والبيت وما حوى، والمال والخدم، فلتكن للبنين والبنات خير مربية وأحسن مثل في طاعة الله وتقواه، والمحافظة على دينها وتعليمها لأولادها وأخذهم به.

فأهم واجبات الأم واجب التّربية الإسلامية الصّحيحة لأولادها وتعهدهم بالنّصائح المفيدة ولتعلم أنّها المدرسة الأولى للأطفال وعليها يتوقف صلاح الأمة وفسادها[1].

الأم مدرسة إذا أعددتَها أعددتَ شعباً طيّبَ الأعراق

وهي مسؤولة أمام الله عن هذه الرعية، فعليها أن تُوجه كلَّ اهتمامها وفكرها ووقتها لفلذات أكبادها بحكمِ وجودِها في البيت، وطبيعة دورها وانشغال الأب في الخارج.

وأقول: إنّ صلة الأم بولدها عندما تنحصر في الحمل والوضع هو نزول بالإنسان إلى مرتبة الحيوان، فالإنسان كما نعلم يمتاز بطول فترة حضانته لأطفاله وهي ليست حضانة غذائية فحسب كما هي في الحيوان، لكنّها خلقية روحية عقلية في الإنسان حتى يسهم الإنسان في تقدم البشرية. هنا لا بدّ من الأم أن ترعى وليدها وتسعى إلى كمال تربيته، لأن الإخلاص له والحرص على ابتغاء الكمال من كل وجه لا يمكن أن يتأتّى من غير الأمّ، لأنّ وراء إخلاصها وحرصها غريزة الأمومة الأمر الذي لا يمكن أن يرتفع به الخدم مهما بَالغُوا في الحرص على الواجب[2].

إنّها الأُمومة الحقّة بما أودعها خالقُها من عاطفةٍ جياشة وحنان دافق وطبع ليّنٍ... ونداء فطري، لولا ذلك لما تحملتِ الأعباءَ الجِسَام، فهي متطوعةٌ دائماً

(١) د. كامل سلامة الدقس، نفحات من السّنّة، ص: ١٠٥، ط ٢.

(٢) محمد محمد حسين، حصوننا مهددة من داخلها، ص: ٩١، ط ٨.

استجابةً لرغبتها الفطرية، تتحمل مشاق الحمل والوضع وتتفانىٰ في الرّعاية والإرضاع - كما بينت سابقاً - وهي تخلص في الحضانة والتربية بمنتهى الإيثار والتضحية ونكران الذّات، فالأمر الذي ينبغي للأم ملاحظته أنّ كلّ دور من أدوار النّمو له ما يناسبه من التّربية والتوجيه والتعليم، بل إنّ كلّ جانب من جوانب تكوين الطفل جسمياً وعقلياً ونفسياً محتاج للرّعاية والعناية والتّعليم.

ولقد أسس الإسلام قواعدَ التّربية وعني بالطفولة أيما عناية، وحث على تربيته وإعداده ليصبح إنساناً صالحاً متكاملاً في عقيدته وسلوكه ومعاملته، ومن ناحية أخرى فإنّنا إذا وازنّا ما قرَّرَهُ الإسلامُ من قواعد تربويّةٍ بمبادىء التّربية الحديثة - في هذا العصر - التي توصّل إليها كبار المربّين والمفكّرين والأخلاقيين الأجانب، فإنّنا نجدهم لم يأتوا بشيء جديد، وأن القرآن الكريم وسنّة الرّسول ﷺ قد سبقهم إلى ذلك منذ قرون[1]. ولو دقّقنا النّظر فإنّنا نرى أنّ الرّسول ﷺ قد ضرب لنا المثلَ الأعلى في التّربية من خلال توجيهاته وتعامله مع المسلمين وأطفالهم ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]. فهو ﷺ قدوتنا وأسوتنا، كما هو معلِّمُنَا ومرشِدُنا وهادينا إلى الحقّ والخير والهناء في الدنيا والنّعيم في الآخرة، صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً.

البحث الرابع:

أدوار الرّعاية التّربويّة للأمومة تجاه الأبناء والبنات

أولاً - التّربية الجسدية والنّفسية للأبناء والبنات:

ويقصد بذلك المحافظة على جسم الطفل قوياً سليماً معافىً من الأمراض

(١) حسن ملا عثمان، الطفولة في الإسلام، ص: ٦٨.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

والعلل، لأن العقل السليم في الجسم السليم (والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) بالإضافة إلى الاهتمام بنفسيته وذلك بمنحه الحب والحنان والشعور بالأمن والتقدير والتشجيع وتوجيه ميوله وغرائزه إلى ما يعود بالنفع على نفسه ومجتمعه، وكلا الجانبين يتداخلان في التربية ولا ينقصان بل هما مكملان لبعضهما كبقية الجوانب الأخرى.

ولقد اهتم الإسلام بالناحية النفسية وحاجة الطفل للحب والحنان والعطف. ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**خير نساء ركبن الإبل صالحو نساء قريش، أحناه على ولده في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده**»[١]، فصفة الحنان والشفقة البالغة على الأطفال إحدى الصفات التي نالت بها المرأة درجة الخيرية، ويعلو نصيبها من الخيرية أيضاً بمقدار ما تبذل من جهد في القيام بهذا الواجب، فالحب والعطف أساس التعامل كله وهو الغذاء النفسي إلى جانب الغذاء الجسدي. والطفل محتاج لكلا الغذاءين حتىٰ ينمو جسده ويبعث في نفسه دفء الحياة.

وهذا الرسول ﷺ قدوة لنا في معاملته الرحيمة الودود بالأولاد والصبية الصغار، بل إنه كان يكره القسوة والجمود، ويعيب هذه الصفة في الإنسان.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «**من لا يَرْحَم لا يُرْحَم**»[٢].

وجاء مرة أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبلون الصبيان فما نقبلهم. فقال النّبيّ ﷺ: «**أَوَ أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة**»[٣].

وليست الرحمة والعطف للولد دون البنت كما يظن البعض، فالعطف والحب

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح. باب (إلى من ينكح وأي النساء خير) ج ٧، ص: ٧.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب باب (رحمة الولد وتقبيله) ج ٨، ص: ٩.
(٣) سبق تخريجه.

كان يشملهما معاً، فقد ورد عن قتادة أنه قال: خرج علينا النّبيّ ﷺ وأمامة بنت العاصي على عاتقه، فصلى فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها[١]. وورد عن عائشة رضي الله عنها قالت: «جاءتني امرأة ومعها ابنتان تسألني فلم تجد عندي غير تمرة واحدة، فأعطيتها فقسمتها بين ابنتيها ثم قامت فخرجت، فدخل النّبيّ ﷺ فحدثته. فقال: «**من بلي من هذه البنات فأحسن إليهن كنّ له ستراً من النار**»[٢].

هذا دليل على الترغيب في الإحسان إلى البنت أكثر ليستأصل عادة كره البنات في الجاهلية وينبّه إلى خطر التفرقة بين الأبناء والبنات في المعاملة. فواجب الأم تجاه طفلها وخاصة في الأدوار الأولى من حياته أن ترعاه وتفديه وتحنو عليه وتقبله وتحضنه، لأن الشعور بالأمن والطمأنينة أمر ضروري لينشأ الطفل خالياً من العقد والاضطرابات النفسية، ليس ذلك فحسب بل هو محتاج إلى الحب والتقدير في مختلف مراحل حياته.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يأخذني على فخذه ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما ثم يقول: «**اللهم ارحمهما فإني أرحمهما**»[٣].

هذا الحديث يدل على أن الأطفال بحاجة إلى العطف والحنان والتشجيع في مختلف مراحل العمر، وذلك لينشأ سليم النفس محباً للخير. لأن فاقد الشيء لا يعطيه، من أجل ذلك كله جعل الإسلام حق الحضانة للأم بعد الطّلاق، لأنّها بحكم طبيعتها وغريزة الأمومة فيها تشبع رغبات الطّفل النّفسيّة والجسديّة. عن عبد اللّه بن عمرو أن امرأة قالت: يا رسول الله إن ابني هذا كانت بطني له وعاء وثدي له سقاء، وحجري له حواء وإن أباه طلقني وأراد أن ينزعه مني، فقال رسول الله ﷺ: «**أنت أحق به منه ما لم تنكحي**»[٤]. أما عن

(١) صحيح البخاري، كتاب (الأدب باب رحمة الولد وتقبيله) ج ٨، ص: ٨.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) صحيح البخاري، كتاب وضع الصبي على الفخذ ج ٨، ص: ١٠.
(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود، كتاب الطلاق، باب من أحق بالولد ج ٦، ص: ٣٧١ حديث سكت عنه المنذري.

التربية الجسدية فقد اهتم الإسلام بنظافة الإنسان وصحته ونظافة البيئة وجعل الطهارة شرطاً أساسياً للعبادة في البدن والثوب والبقعة، قال رسول الله ﷺ: «**الطّهُور شطر الإيمان**»[١] الحديث.

فعلى الأم المسلمة أن تعلم صغارها أصول الطهارة، وتحافظ على نظافتهم منذ نعومة أظفارهم، لأن من شبّ على شيء شاب عليه. فتعلمهم آداب قضاء الحاجة وكيفية الاستنجاء والوضوء والسواك وتقليم الأظافر والاغتسال، فتدربهم على ذلك عملياً وتشرف على تنفيذهم للآداب وتصحيح أخطاءهم، وتتذرع بالحكمة والموعظة الحسنة والرفق في التوجيه مع التشجيع والمدح والثناء على من أجاد صنعاً، وقبل كل ذلك يجب أن تكون قدوة صالحة أمامهم تعمل وتطبق على نفسها ما تأمرهم به، وعليها أن توجّههم المرة تلو المرة حتى تصبح تلك الآداب عادة فيهم فينشأون عليها ويحرصون على تأديتها أينما حلّوا أو رحلوا، وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة تحثّ على النظافة والطهارة. يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٢].

وقال ﷺ: «**خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وقص الشارب**»[٣].

فالمسلم نظيف الجسم والأعضاء، وعلى الأم أن تعوّد أبناءها تلك العادات الحسنة لا في نفسه وبيته فحسب، بل لا بدّ من مراعاة النظافة في البيئة المحيطة من حوله أيضاً وذلك مشاركة منه في الحفاظ على صحة البيئة بصفة عامة وما عاش من عاش لنفسه فقط، وأيضاً لمراعاة شعور الناس وتجنب أذاهم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا اللعانين، قالوا**: وما اللّعانان[٤] يا رسول الله؟ قال: **الذي يتخلى**[٥] **في طريق الناس أو في**

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء ج ٣، ص: ١٠٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.
(٣) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة ج ١، ص: ٢٢١.
(٤) اللعانان: الأمران الجالبان للّعن.
(٥) يتخلى: أي يتغوط في موضع يمر به الناس.

ظلهم»[١].

وعلى الأم أن تعلِّم أبناءها طريقة الاستنجاء الصحيحة والتطهر من النجاسات لما لذلك من أثر واضح في صحة أداء العبادات ومراعاة لأصول النظافة والصحة واقتداء برسول الله ﷺ. عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يتبرز لحاجته فآتيه بالماء فيغسل به[٢].

وحتى طريقة استعمال اليدين علّمنا إياها رسول الله ﷺ، فيجب أن نعلمها أولادنا ونربيهم عليها حتى ينشأوا وقد أصبحت عادة يعتادونها ولا يفرطون فيها. فقد قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يحبّ التيمن في شأنه كله وفي نعليه، وترجله وطهوره»[٣].

وعلى عكس ذلك فقد كان ينهى عن «الاستنجاء باليمين» لأن في ذلك إزالة النجاسة. فكان يقول: «**لا يمسكن أحدكم ذكره بيمينه وهو يبول، ولا يتمسح في الخلاء بيمينه، ولا يتنفس في الإناء**»[٤].

وجملة آداب الطهارة والنظافة، على الأم أن تعلم أبناءها المحافظة على أسنانهم باستعمال السواك أو ما يقوم مقامه، وإن كان السواك أفضل لما فيه من المواد المطهرة للفم والمزيلة للرائحة الكريهة التي اكتشفها العلم الحديث الآن[٥]. والنّبيّ ﷺ يقول قبل اكتشاف الطب: «**السواك مطهرة للفم مرضاة للرب**»[٦]. وكان يقول: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة**»[٧].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب النهي عن التخلي في الطريق الظلال ج ١، ص: ٢٢٦.
(٢) يتبرز: معناه يأتي البراز: وهو المكان الواسع من الأرض، ويستتر: يبعد عن أعين الناظرين، فيغسل: معناه يستنجي به ويغسل محل الاستنجاء. صحيح مسلم كتاب الطهارة، باب الاستنجاء بالماء من التبرز ج ١، ص: ٢٢٧.
(٣) المرجع السابق ج ١، ص: ٢٢٦.
(٤) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب (النهي عن الاستنجاء) وغيره ج ١، ص: ٢٢٥.
(٥) انظر كتاب السواك والعناية بالأسنان، عبد اللّه عبد الرزاق مسعود السعيد.
(٦) سنن النسائي كتاب الطهارة، باب (الترغيب في السواك) ج ١، ص: ١٠.
(٧) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب (السواك) ج ١، ص: ٢٢٠.

وعليها أن تعلمهم طريقة الاغتسال، وتعرفهم أحكامه فهو يكون واجباً مرة، ويكون مسنوناً مرة وخاصة الفتاة حين بلوغها سن الحيض، فيجب أن تعلمها كيفية الاغتسال من الحيض والاحتلام. ولقد أكد النّبيّ ﷺ على غسل يوم الجمعة فقال: «**الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم**»(١) وبذلك ينشأ الأطفال على حب الاغتسال والنظافة.

وكذلك يجب أن تعلمهم طريقة الوضوء كما شرع الله، فإن تعوّد عليها الصغير قام به بكل سهولة وأدى صلاته بيسر واقتناع.

فقد ورد عن «عثمان بن عفان» رضي الله عنه أنه دعا بوضوء فتوضأ فغسل كفيه ثلاث مرات ثم مضمض واستنثر ثم غسل وجهه ثلاث مرات، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاث مرات، ثم غسل يده اليسرى مثل ذلك ثم مسح رأسه، ثم غسل رجله اليمنى إلى الكعبين ثلاث مرات، ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم قال: «رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا»(٢).

كما ينبغي لها أن تعوّدهم على المحافظة على نظافة الثياب وطهارتها وحسن المظهر، وكذلك التطيب حتى لا يتأذى الناس بالرائحة الكريهة، والتزين في المناسبات كالعيدين والجمع. قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾(٣).

والرسول ﷺ يرغب في حسن المظهر، ونظافة الثياب وطهارتها فيقول: «**من اغتسل يوم الجمعة فأحسن غسله، وتطهر فأحسن طهوره ولبس من أحسن ثيابه، ومس ما كتب الله له من طيب أهله، ثم أتى الجمعة ولم يلغ ولم يفرق بين اثنين غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى**»(٤).

---

(١) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، باب (الغسل) ج ٦، ص: ١٣٢.
(٢) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب (صفة الوضوء وكماله) ج ١، ص: ٢٠٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣١.
(٤) ابن ماجه، سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب (ما جاء في الزينة يوم الجمعة)/ ج ١، ص: ٣٤٩.

أما من ناحية الغذاء فإنه ضروري لبناء الجسم السليم، فعلى الأم أن تحرص على تغذية أبنائها الغذاء المتوازن، الذي تتوفر فيه جميع العناصر اللازمة دون إفراط ولا تفريط يقول تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[١].

وذلك لأن الاعتدال واجب حتى لا يصاب الإنسان بالتخمة والسمنة. وقد قالت العرب قديماً: (البطنة تذهب الفطنة) إلى جانب ما يسبب ذلك كثيراً من الأمراض الشائعة حيث يقول رسول الله ﷺ: «**ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»[٢].

وعليها أن تحرص أن يكون طعام أسرتها من كسب حلال، لأن الكسب الحرام يهلك صاحبه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٣].

ومن واجب الأم نحو أطفالها أن تعلمهم آداب الطعام وكيفية تناوله، وكذلك آداب الشراب والبدء بالتسمية قبل ذلك. وخير قدوة لنا رسول الله ﷺ في طريقة توجيهه لأطفال الصحابة رضوان الله عليهم. فعن عمر بن أبي سلمة قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة. فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا غلام سمّ الله وكل بيمينك، وكل مما يليك**»[٤].

ويقول ﷺ: «**إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله**»[٥].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

(٢) المباركفوري، تحفة الأحوذي، باب (ما جاء في كراهة كثرة الأكل) ج ٧، ص: ٥١ - ٥٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٠.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب (التسمية على الطعام والأكل باليمين)/ج ٧، ص: ٨٨.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب (آداب الطعام والشراب)/ج ٣، ص: ١٥٩٨ - ١٦٠٠.

وعن أنس رضي الله عنه قال: إن النّبيّ ﷺ زجر عن الشرب قائماً[١].

وعلى الأم أن تشجع أبناءها على ممارسة الرياضة البدنية لينشأ قوي الجسم متين العضلات. والرسول ﷺ يفضل القوي على الضعيف في الحديث ويقول: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير واحرص على ما ينفعك ولا تعجز فإن غلبك أمر فقل: قدَّر الله وما شاء فعل، وإياك واللو، فإن اللو تفتح عمل الشيطان**»[٢]، وذلك لينشأ على حب الجهاد والذود عن حياض الإسلام. يقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[٣].

والرياضة هي خير وسيلة لشغل أوقات الفراغ بعد التعلم والعمل والعبادة. وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يعرفون أهمية الرياضة فكانوا يشجعون أولادهم على تعلم المهارات المختلفة.

هذا بالإضافة إلى واجب آخر من أهم الواجبات على الأم، وهو أن تلتزم سبل الوقاية من الأمراض، كما قيل درهم وقاية خير من قنطار علاج. وقيل: الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، ولا يراه إلا المرضى، فإن مرض الطفل فعليها أن تعالجه بدواء نافع ينصح به الطبيب المتخصص، ولا يجوز لها أن تهمله حتى لا يؤدي به الإهمال إلى ضرر أكبر فيهلكه (لا سمح الله). فقد روي عن جابر أن النّبيّ ﷺ قال: «**لكل داء دواء فإذا أصاب دواء الداء برىء بإذن الله**»[٤].

مع تجنب اللجوء إلى السحر والشعوذة في العلاج لأنه يؤدي إلى الشرك لما ورد عن الرسول ﷺ قال: «**اجتنبوا الموبقات: الشرك بالله والسحر**»[٥].

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد باب (التوكل واليقين)/ج ٢، ص: ١٣٩٥.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.
(٤) صحيح مسلم، كتاب السلام، باب (لكل داء دواء) ج ٤، ص: ١٧٢٩.
(٥) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب (الشرك والسحر من الموبقات) ج ٧، ص: ١٧٧.

وكما نعلم فإن الأخذ بالأسباب والمسببات من صميم مبادىء الإسلام، فالاستعانة بالأطباء واتخاذ التدابير الوقائية والعلاج من الأمراض السارية والمعدية أمر ضروري للحفاظ على صحة الأبناء ووقاية أجسامهم منها، فإذا مرض أحدهم وجب عزله عن باقي إخوانه حتى لا ينتشر المرض، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا يورد ممرض على مصح**»(١). تلك هي الأسس وغيرها مما رسمه الإسلام وأمر به في تربية الأولاد الجسمية والنفسية وفيها كل الخير والفائدة. فعلى الأم المسلمة أن تطبق ما جاء فيها حتى تضمن لأبنائها الصحة والقوة والعافية بإذن الله وتكون بالتالي أدّتْ جزءاً من المسؤولية الملقاة على عاتقها.

ثانياً - التّربية النّفسيّة والخُلقية للأبناء والبنات:

ويقصد بذلك غرس العقيدة الإسلامية الصحيحة في نفوس الأبناء، بما في ذلك حب الله ورسوله وتلاوة القرآن، والتدبر في معانيه، وتطبيق ما جاء فيه والقيام بالشعائر الإسلامية ومراقبة الله وتجنب ما نهى الله ورسوله عنه، والتحلي بالأخلاق الإسلامية الفاضلة والآداب الجليلة وتجنب الرذائل والمعاصي. فعلى الأم المسلمة واجب كبير في هذه الناحية، لأن رعاية الطفل من الناحية الجسدية لا تكفي، بل لا بدّ من رعاية الجانب الروحي والخلقي، حتى يكتمل بناء إنسانيته كإنسان مكون من جسد وروح. قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾(٢).

فلا بد من تلقين الولد أصول الإيمان وأركان الإسلام وأحكام الشّريعة لينشأ ثابت العقيدة لا يتزعزع بالدجل، ولا يتأثر بالتيارات الهدّامة، والطفل حين ولادته تكون فطرته سليمة نقية صافية، قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾(٣).

---

(١) صحيح مسلم، كتاب السلام، باب (لا عدوى ولا طيرة) ج ٤، ص: ١٧٤٣.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٢٩.
(٣) سورة الروم، الآية: ٣٠.

والرسول ﷺ يقول: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه**»(١).

ويقول الإمام الغزالي رحمه الله: فأوائل الأمور التي ينبغي أن تراعى فإن الصبي بجوهره خلق قابلاً للخير والشر جميعاً، وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين(٢).

ولقد فطن علماء التربية والأخلاق الآن إلى أهمية التربية الدينية الروحية وأثرها في إصلاح سلوك الأفراد، وتقويم اعوجاج النفوس بعد التجربة المريرة التي خاضوها حين نشروا العلمانية والإلحاد، فوقعوا في كثير من الأمراض الاجتماعية، وكثرة الجرائم، وانحلال الأخلاق. واعلموا أنه ما من سبيل للإصلاح إلا بالتربية الإيمانية والاهتمام بالجانب الروحي، حتى تعيش الفضائل، ويعرف الخير من الشر، وينعم المجتمع بالقيم والأخلاق الحميدة كل ذلك قد وصّى به الدين الإسلامي الحنيف في تربية الأولاد على العقيدة الصحيحة وربط بخالقه، وليس أدل على ذلك من بيان طريقة القرآن ومنهجه في تربية الأسس العقائدية الصحيحة في منهج تربية لقمان لابنه إذ بدأ بعرض عقيدة التوحيد بنهيه عن الشرك ووصفه بالظلم العظيم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٣).

ويتبع ذلك بذكر أوصاف يصور بها عظمة الله وعلمه وشمول قدرته وقوته على سائر خلقه فقال: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾(٤).

وبعد انتهائه من أمر العقيدة يرشد إلى تحقيق معاني العبودية المترتبة على

---

(١) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب (معنى كل مولود يولد) ج ٤، ص: ٢٠٤٧.
(٢) الإمام الغزالي، إحياء علوم الدين ج ٣، ص: ٧٤.
(٣) سورة لقمان، الآية: ١٣.
(٤) سورة لقمان، الآية: ١٦.

الاعتقاد بوحدانية الله وهي الصلاة وعمل الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجملة الآداب والفضائل الخلقية الحميدة من صبر وتواضع وتسامح ولين ورفق. فقال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾[1].

والملاحظ في التربية الإسلامية أنها تربط بين التربية الروحية وبين التربية الخلقية وسلوك الإنسان في الحياة الاجتماعية بوجه عام، وهذه الوصية القرآنية خير ما تقدمها الأم لأبنائها وتدربهم عليها وهي مسؤولة عنهم باعتبارها المحضن الأساسي للطفل منذ ولادته إلى أن يشب ويكبر. فهي تتولى شؤونه وأموره صغيرها وكبيرها وتراقب تصرفاته، بل هي القدوة الأساسية أمامه، فالطفل مقلد بارع يتبع ما يراه واقعه، لذا وجب على الأم أن تكون قدوة صالحة ذات سلوك مستقيم فيباشر الطفل بنفسه الاقتداء بها.

فعن عبد اللَّه بن عامر رضي الله عنه قال: دعتني أمي يوماً ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا؟ فقالت: هاك تعال أعطيك! فقال رسول الله ﷺ: وما أردت أن تعطيه؟ قالت: أردت أن أعطيه تمراً. فقال لها رسول الله: «**أما إنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة**»[2].

إنها تصرفات يسيرة في الظاهر ولكنها عميقة التأثير في السلوك، فقد خشي رسول الله ﷺ أن تكون الأم كاذبة، وأنها تستدرج ابنها كما تفعل بعض الأمهات الجاهلات بدين الله فأراد أن يتأكد من صدقها لعلمه ما سيترك ذلك من أثر في نفسية الطفل البيضاء النقية، لأنه سيتعلم الكذب بالتقليد والإيحاء، وتصبح عادة الكذب لديه مستحكمة. والإسلام كما نعلم ربّى الأمة الإسلامية على الصدق

---

(١) سورة لقمان، الآيات: ١٧ - ١٩.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب (التشديد في الكذب) ج ٣، ص: ٣٣٥. وقال المنذري: مولى عبد اللَّه مجهول.

ونهاها عن الكذب حتى في المزاح وهكذا في بقية الأخلاق الإسلامية والفضائل الحميدة نرى أن القدوة الصالحة لها أثر كبير في تعلم الطفل وتربيته وتدريبه على التمسك بمختلف الكمالات الخلقية.

فعلى الأم أن تكون ذات عقيدة صحيحة، سليمة من الانحرافات مؤمنة تطبق أركان الإيمان وتؤدي شعائر الإسلام، وتلتزم بالأخلاق الإسلامية الحميدة حتى تكون خير قدوة لأبنائها في تربيتهم التربية الإيمانية والخلقية الصحيحة، فالعقيدة هي أساس حياة الإنسان، عليها يبنى السلوك والأخلاق والميول والاتجاهات. فمن واجبها أن تتعهد أبناءها بغرس الأصول الإيمانية في نفوسهم عن طريق الموعظة والقصة لأن الأطفال في صغرهم يرغبون في أسلوب القصص لما فيها من عنصر التشويق والإثارة، فبدلاً من أن تحكي لهم قصص الخرافات والغرائب عليها أن تقص عليهم قصصاً صحيحة من القرآن الكريم وسير الرسل والأنبياء الكرام وقصص الأبطال والعظماء من الصحابة والتابعين ورجال السلف الكرام، حتى يتعمق في ذهن الطفل حب هؤلاء والاقتداء بهم.

وعليها أن تتوخاهم بالنصيحة والإرشاد في أوقات مناسبة بأسلوب يناسب سنّهم ومستواهم في الإدراك. وخير مثل يضربه بنا رسول الله ﷺ في تعهده للصغار بالموعظة ما رواه عن عبد اللّه بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النّبيّ ﷺ يوماً، فقال: «**يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإذا اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[1].

يدل هذا الحديث على عنايته التامة بتربية الأطفال وتغذية نفوسهم بالعقائد

(١) تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي، كتاب صفة القيامة ج ٧، ص: ٢١٩. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

الإسلامية وغرس الأعمال الصالحة في نفوسهم لينشأوا نشأة حسنة علماء بدينهم عاملين بتعاليمه، حريصين على حسن أدائها حتى إذا كبروا كانوا مرجعاً لغيرهم كما كان شأن عبد اللّه بن عباس وغيره من الصحابة الأجلاء الذين كانوا نعم الموئل والملجأ للمسلمين بعد النّبيّ ﷺ[١].

وعلى الأم أن تعلم أبناءها الفرائض الواجبة على كل مسلم حسب تطوره في السن. فالصلاة يؤمر بها ابن السابعة كما بيّن رسول الله في قوله: «**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع**»[٢].

يقول صاحب عون المعبود في شرح الحديث: (**مروا**) من الأمر (**أولادكم**) يشمل الذكور والإناث، (**وهم أبناء سبع**) ليعتادوا أو يستأنسوا بها (**واضربوهم وهم أبناء عشر**) لأنهم بلغوا أو قاربوا البلوغ (**وفرقوا بينهم في المضاجع**) أي المراقد، قال المناوي في فتح القدير: أي فرقوا بين أولادكم في مضاجعهم التي ينامون فيها إذا بلغوا عشراً، حذراً من غوائل الشهوة، وإن كنّ أخوات. قال الطيبي: (جمع بين الأمر بالصلاة والتفرقة بينهم في المضاجع في الطفولية تأديباً لهم، ومحافظة لأمر الله كله، وتعليماً لهم المعاشرة بين الخلق، وأن لا يقفوا مواقف التهم فيجتنبوا المحارم)[٣].

إن دقائق التربية وأسرارها بالمعنى الصحيح لا يتكامل إلا في «التربية الإسلامية» التي جمعت بين خصائص الروح والجسد، وقدمت للإنسانية نموذجاً ليس له مثيل مهما وضع علماء من نظريات وجاؤوا بفلسفات فإنها لن تصل إلى كمال وجمال التربية الإسلامية الأصيلة.

---

(١) د. كامل سلامة الدقس، من الأدب النبوي، ص: ١٤٩.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة ج ٢، ص: ١٦٢. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، مع شرح الحافظ ابن قيم الجوزية ج ٢، ص: ١٦١ - ١٦٢.

هذا ما يجب على الأم تعلمه والعمل به، فإنها لو اتخذت من أسلوب ومنهج التربية الإسلامية منهاجاً لها وطريقة مثلى لتعليم صغارها، فإنها ستصل حتماً في النهاية إلى إعداد جيل سليم متكامل.

وكذلك يجب عليها في كل الفروض الباقية، أن تحبب إليهم أداءها على حسب طاقاتهم وسني أعمارهم (كالصيام) فتدربهم عليه، وكذلك إخراج الزكاة والصدقة المفروضة وغيرها من العبادات كالدعاء وقراءة القرآن وحفظه والتدبر في معانيه وتطبيق ما جاء فيه من أوامر، واجتناب ما ورد فيه من نواهٍ، وعلى الأم أن تعوّد أبناءها على خلق الحياء لأن «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»[١].

وعليها تدريب ابنتها على الاحتشام في الملبس والمظهر حتى تتعود على ذلك، فتنشأ مهذبة محبة للتستر والحجاب، فإذا ما وصلت سن البلوغ تقوم بما فرض الله عليها من حجاب برضى وسعادة، وكذلك كل خلق إسلامي يجب على الأم أن تحببه إلى نفوس أبنائها، وتدربهم على التحلي بها في السلوك والمعاملات وتحذرهم من الرذائل الخلقية وآثارها حتى يستطيع الأولاد التمييز بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة، فالأخلاق ثمرة العقيدة، والعبادة الصحيحة تظهر آثارها في السلوك. قال تعالى في وصف نبيّه الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢].

فالأم هي المدرسة الأولى يتعلم فيها الأبناء أول دروس الحياة، وهي القدوة المثلى أمامهم فيجب أن تتحلى بالأخلاق الفاضلة وتتمسك بالآداب الإسلامية، فيوافق النصح بالكلام التطبيق العملي فتعلمهم آداب الاستئذان داخل البيت وخارجه والتحية وآداب الكلام واحترام الكبير والعطف على الصغير وإكرام الضيف ومساعدة الجار والعطف على الفقراء والمساكين وإغاثة الملهوف ومساعدة المحتاج، وبر الوالدين وصلة الرحم والصدق والأمانة والإيثار والحلم والصبر والعفو والتواضع والجرأة الأدبية، والدفاع عن الحق والجهاد وبذل النفس والمال في سبيل إعلاء كلمة الحق، وتنهاهم عن رذائل الأخلاق كالكذب

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، (باب الحياء) ج ٨، ص: ٣٥.
(٢) سورة القلم، الآية: ٤.

والنميمة والسرقة والسخرية والغرور والكبر والسباب والشتم والقسوة والجبن والخوف والجور.

وإليك بعض الأدلة من القرآن والسنة على الآداب الإسلامية لتكون مرجعاً للأم في تعلمها وتعليمها فمنها آداب الاستئذان.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٨ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٩﴾[1].

هذه جملة آداب الاستئذان أوردَها الله ﷻ ليتأدّب المسلمون بها، ويُؤدّبوا أبناءَهم وخدمَهُم عليها داخل البيوت والمساكن.

وقد سمّى الله ﷻ هذه الأوقات «بعورات ثلاث» لانكشاف العورة فيها، لذلك وجب تعليم الأبناء والبنات آداب الاستئذان من أول بدايات الوعي والإدراك لديهم، حتى لا تقع أعينُهم على ما يُكره النظر إليه من عورتي الأبوين.

وهذا الأدبُ يغفلُ عنه كثيرٌ من الآباء والأمّهات في حياتهم المنزلية، فيجبُ عليهم الأخذُ بهذه الآداب وتأديبُ الأولاد عليها والتّقيّد بها.

ثالثاً - التّربية العقلية للأبناء والبنات:

إنّ الإسلام اهتمَّ بجانب العقل كما اهتمَّ بجانب الجسد والروح، وأمر بتنمية هذه الملَكَة وتسخيرها لمصلحة بني آدم، فنرى القرآن الكريم يأمرُ بالتّدبّر والتّفكّر، وإعمال العقل في استنباط دقائق وأسرار الكون، فيقولُ الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾[2].

(١) سورة النور، الآيتان: ٥٨، ٥٩. (٢) سورة محمد، الآية: ٢٤.

فالواجب على الأمّ بالتّعاون مع الأب الذي يكون به الدّور الأكبر في الاهتمام بالنّاحية العقلية لدى الطّفل وتنمية مواهبه ومهارته.

والطّفل يتميّز في مراحله الأولى بشدّة الانتباه وكثرة الأسئلة والخيال الواسع في كثير من المجالات، فعلى الأم أن تُلاحظ مدارك طفلها وأن تُجيبه على أسئلته بأجوبة مقنعة صحيحة تلائم سنّه ومقدار فكره، وأوّل ما ينبغي أن يتعلّمه الطفل قراءة القرآن الكريم، ثم تعلّم الآداب النّبوية والأخلاق المحمّدية صلّى الله على صاحبها، ثم تعلّم الكتابة، ثم العلوم الحديثة الهامّة للحياة.

يقول الله تبارك وتعالى في أول ما أنزل من القرآن العظيم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾[1].

فالقراءة والكتابة هما الوسيلتانِ اللّتان يتعرّف بهما الإنسان على العلوم والمعارف، فتزداد معارفه وينمو عقله، فعلى الأم أنْ تُشجّع أبناءَها على العلم والتّعلُّم، وذلك بتهيئة الجوّ المناسب، وتعويدهم على النّظام البيتي في تناول الغذاء والعلم والرّاحة واللّعب المفيد، ثم تساعدهم على فهم ما غمض على أذهانهم من العلوم والمعارف، وعليها أن تعوّدهم على التّأمّل والتّفكُّر والاستنباط ممّا يتعلّمون، فلا تترك فرصةً مناسبة إلّا وتلفتُ انتباههم إلى عظيم قدرة الله تعالى في إنعامه على مخلوقاته، وقد مدح الله تعالى هذه الصّفة في الإنسان ذكراً كان أم أنثى فقال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[2].

بهذه الصّفات سادَ سلفنا الصّالح على الدّنيا، حين أعملوا العقلَ فتفتّقتْ أذهانهم بالعلوم النّافعة، فالإسلامُ دينُ العلم والفهم والمعرفة والاعتبار والاكتشاف والابتكار، يقول رسولُ الله ﷺ: «**طلبُ العلمِ فريضة على كل**

(١) سورة العلق، الآيات: ١ - ٥.
(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠، ١٩١.

مسلم»[١]. وطلب العلم المفروض هو توحيد الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، ويدخل في ذلك ما يُعين على القيام بذلك من العلوم الكونيّة، وطلبُ العلم لا يتوقّف على زمنٍ أو سنٍّ معيّنة، بل يستمرّ طوال العمر، يقول الله تبارك وتعالى آمراً رسوله ﷺ وأفرادَ أمّته من بعده: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٢].

فعلى الأبوين أنْ يحرصَا على تعليم أبنائهما العلومَ النّافعة المفيدة من أهمّها العلومُ الشّرعية، ثم العلوم الكونية التي تساعدهم على حياتهم، ليعملُوا بما علِمُوا، فينفعُوا أنفسَهُم وأهليهم وأُمّتهم، وقد مدح الله تعالى العلمَ النّافع والعلماءَ العاملين، فقال سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٤].

وعلى الوالدين أن يُوجّهَا أبناءَهما في المنزل ويُتابِعَا تحصيلهم الدّراسي والعلمي، وأن يرغّبَا أبناءَهما في التّفوّق في التّحصيل الدّراسي والعلمي، وهذا له أثرُهُ البالغ في نُبوغ الأبناء والبنات والنّجاح والتّفوّق، والله المستعان على بلُوغِ هذا الجانب من الرّعاية الأبويّة.

البحث الخامس:

خصائص الأمومة[٥]

«إن الأمومة بكل ما تحويه من مشاعر نبيلة، وأعمال رفيعة، وصبر على

(١) سنن ابن ماجه ج ١/ ٨١.
(٢) سورة طه، الآية: ١١٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٩.
(٥) دستور الأسرة في ظلال القرآن: لأحمد فايز/ ٣٠ - ٣٣، ط مؤسسة الرسالة، بيروت.

الجهد المتواصل، ودقة متناهية في الملاحظة وفي الأداء، هي التكيف النفسي والعصبي والفكري الذي يقابل التكييف الجسدي للحمل والإرضاع. كلاهما متمم للآخر متناسق معه، بحيث يكون شذوذاً عجيباً أو يوجد أحدهما في غيبة من الآخر.

«وهذه الرقة اللطيفة في العاطفة، والانفعال السريع في الوجدان، والثورة القوية في المشاعر، التي تجعل الجانب العاطفي، لا الفكري، هو النبع المستعد أبداً بالفيض، المستجاش أبداً بأول لمسة، كل ذلك من مستلزمات الأمومة، لأن مطالب الطفولة لا تحتاج إلى التفكير، الذي قد يسرع أو يبطىء وقد يستجيب أو لا يستجيب، وإنما تحتاج إلى عاطفة مشبوبة لا تفكر، بل تلبي الداعي بلا تراخ ولا إبطاء».

«فهذا كله هو الوضع الصحيح للمرأة حين تلبي وظيفتها الأصيلة وهدفها المرسوم».

«والرجل إلى جانب آخر مكلّف بوظيفة أخرى، ومهيّأ لها على طريقة أخرى».

«مكلف بصراع الحياة في الخارج، سواء كان الصراع هو مجابهة الوحوش في الغابة، أو قوى الطبيعة في السماء والأرض.

أو نظام الحكومة وقوانين الاقتصاد. . . كل ذلك لاستخلاص القوت، ولحماية ذاته وزوجه وأولاده من العدوان.

«هذه الوظيفة لا تحتاج أن تكون العاطفة هي المنبع المستجاش، بل ذلك يضرها ولا ينفعها، فالعاطفة تتقلب في لحظات من النقيض إلى النقيض، ولا تصير على اتجاه واحد إلا فترة، تتجه بعدها إلى هدف جديد وهذا يصلح لمطالب الأمومة المتغيرة المتقلبة، ولكنه لا يصلح لعمل خطة مرسومة تحتاج في تنفيذها إلى الثبات على وضع واحد لفترة طويلة من الوقت وإنما يصلح لذلك الفكر، فهو بطبيعته أقدر على التدبير وحساب المقدمات والنتائج قبل التنفيذ، وهو أبطأ عملاً من العاطفة الجياشة المتفجرة وليس المطلوب منه هو السرعة

بقدر ما هو تقدير الاحتمالات والعواقب، وتهيئة أحسن الأساليب للوصول إلى الهدف المنشود وسواء كان المقصود هو صيد فريسة، أو اختراع آلة، أو وضع خطة اقتصادية، أو سياسة حكم، أو إشعال حرب، أو تدبير سلم، فكلها أمور تحتاج إلى أعمال الفكر، ويفسدها تقلب العاطفة».

«ولذلك فالرجل في وضعه الصحيح حين يؤدي هدفه الصحيح».

«وهذا يفسر كثيراً من أوجه الخلاف بين الرجل والمرأة، فهو يفسر مثلاً لماذا يستقر الرّجل في عمله، ويمنحه الجانب الأكبر من نفسه وتفكيره بينما هو في الميدان العاطفي متنقل كالأطفال. في حين أن المرأة تستقر في علاقاتها تجاه الرّجل، وحينما تتجه إليه فكأنما كيانها كله يتحرك ويتدبر الخطط ويرتب الملابسات، وهي في هذا الشأن أبعد ما تكون دقة.

فهي ترسم أهدافها لمسافات بعيدة وتعمل دائبة على تحقيق أغراضها، بينما لا تستقر في العمل إلّا أن يكون فيه ما يلبي جزءاً من طبيعتها الأنثوية كالتّمريض، أو التدريس أو الحضانة، أما حين تعمل في المتجر فهي تلبي كذلك جزءاً من عاطفتها بحثاً عن الرّجل هناك.

ولكن هذه الأعمال كلها بديل لا يغني عن الأصل، وهو الحصول على رجل وبيت وأسرة وأولاد، وما إن تعرض الفرصة للوظيفة الأولى حتى تترك المرأة عملها لتهب نفسها لبيتها، إلا أن يحول ذلك عائق قهري كحاجتها إلى المال».

ولكن هذا ليس معناه الفصل الحاسم القاطع بين الجنسين: ولا معناه أن كلاً منهما لا يصلح أية صلاحية لعمل الآخر».

«. . . . الجنسان إذن خليط، وعلى نسب متفاوتة، فإذا وجدت امرأة تصلح للحكم أو القضاء أو حمل الأثقال أو الحرب والقتال. . . . وإذا وجد رجل يصلح للطهي وإدارة البيوت أو الإشراف الدقيق على الأطفال أو الحنان الأنثوي أو كان سريع التقلب بعواطفه ينتقل في لحظة من النقيض للنقيض: فكل ذلك أمر طبيعي، ونتيجة صحيحة لاختلاط الجنسين في كيان كل جنس. ولكنه خلو من

الدلالة المزيفة التي يريد أن يلصقها به شذاذ الآفاق في الغرب المنحل والشرق المتفكك سواء.

فالمسألة في وضعها الصحيح ينبغي أن توضع على هذه الصورة وهل كل هذه الأعمال التي تصلح لها المرأة زائدة على وظيفتها الطبيعية، تغنيها عن طلب البيت والأولاد والأسرة، وتغنيها عن طلب الرّجل قبل هذا وبعد ذلك ليكون في البيت رجل! بصرف النظرة عن شهوة الجنس وجوعة الجسد؟...

إن مزية الإسلام الكبرى أنّه نظام واقعي، يراعي الفطرة البشرية دائماً ولا يصادمها أو يحيد بها عن طبيعتها.

وهو يدعو الناس لتهذيب طبائعهم والارتفاع بها، ويصل في ذلك إلى نماذج تقرب من الخيالات والأحلام، ولكنه في تهذيبه لا يدعو لتغيير الطبائع ولا يضع في حسابه أنّ هذا التغيير ممكن، أو مفيد لحياة البشرية حتى إذا أمكن! وإنما يؤمن بأن أفضل ما تستطيع البشرية أن تصل إليه، هو ما يجيء تمشياً مع الفطرة بعد تهذيبها والارتفاع بها من مستوى الضرورة إلى مستوى التطوع النبيل، وهو يسير في مسألة الرجل والمرأة على طريقته الواقعية المدركة لفطرة البشر فيسوي بينهما حيث تكون التسوية هي منطق الفطرة الصحيح، ويفرق بينهما كذلك، حيث تكون التفرقة هي منطق الفطرة الصحيح.